الفصل العاشر

[بدايات الفلسفة الصينية بين كونفوشيوس ولاوتسو]

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) كونج - فو -تزى (كونفوشيوس) مؤسِّس الكونفوشية.

(ج) لاو - تزر (لاوتو) مؤسِّس التاوية

(د) الكونفوشية فلسفة إنسانية اجتماعية:

(١) الطريق الكونفوشى طريق "جين" أو "طيبة القلب الإنسانية"

(٢) ضرورة احترام "آداب المجتمع" فى فلسفة كونفوشيوس.

(٣) دور "العائلة" فى فلسفة كونفوشيوس.

(٤) دور "الاستقامة" فى فلسفة كونفوشيوس.

(هـ) التاوية.. والتأكيد على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة.

(أ) تمهيد:

يبدأ التاريخ الفعلى المُسّجل للصين بأسرة شانج [1] shang فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهذا يدل على وجود حضارة متقدمة فى الصين، فالفن الذى يعود إلى هذه الفترة هو فن مصقول ومركب حتى وفقاً للمعايير الحديثة، وقد انتهت هذه الأسرة بالغزو على يد شعب تشو chou الأكثر بدائية، والذى يفيد التراث أنه قد أسس أسرة تشو فى عام ١١٢٢ ق.م.

وعلى الرغم من أن "التشو" كانوا أكثر بدائية على الصعيدين الفنى والثقافى، فإنهم كانوا شعباً قوياً ذا عزم وتصميم، وقد قاموا بغزو أجزاء كبيرة من الصين، معتمدين على القوة والعنفوان وحدهما، وإذا لم تتوافر لهم السُبل التى تمكنهم من إدارة كل الأراضى التى قاموا بغزوها كدولة مركزية واحدة، فقد فوضوا سلطة إدارية لزعماء القبائل والنبلاء، الذين تربطهم بهم علاقات طيبة، وقدموا مساحات من الأرض مقابل الصداقة والتعاون من جانب هؤلاء الملاك الجدد الذين مُنحوا الأرض، ويبدو أنَّ هذا النظام الإقطاعى قد ساد بشكل جيد خلال صدر عهد التشو، وكانت قوة ملوك التشو هى وحدها التى منعت الأتباع من الإقطاعيين من التمرد، وبمرور الوقت تبينّ أنَّ الملوك لايقدرون على السيطرة على كل الأراضى المفتوحة، حتى ولو من خلال النظام الإقطاعى، حيث وقع المزيد من القلاقل، وانقلب الحكام الإقطاعيون أحدهم على الآخر.

وبحلول عام ٧٧٠ ق.م، كانت الأمور قد تردت إلى حد تمكن معه تحالفٌ من الحكام الإقطاعيين من شن هجوم ناجح على عاصمة التشو فى الغرب، وقتل الملك واغتصاب سلطته، ومنذ ذلك الوقت أصبح الصراع والحرب يفرضان حضورهما خلال القرنين اللذين سبقا كونفوشيوس، وشكّل العنف والتآمر الطابع السائد للساحة السياسية، وتغلبت النفعية على الأخلاق، وشكّل الغش والخداع أساس المؤامرات التى حلّت محل الحكم السياسى، وكانت عواقب هذه المؤامرات

---

[1] شانج – shang– الأسرة المالكة التى يبدأ بها التاريخ المُسّجل للصين، وقد استمر حكمها من القرن الرابع عشر حتى القرن الحادى عشر ق.م ، وقد تم إلقاء أضواء قوية على الحياة فى حكم هذه الأسرة وذلك لدى اكتشاف مجموعة من العظام نقُشت عليها بعض النصوص، قرب نهاية القرن التاسع عشر.

والحروب التى نجمت عنها مما يتجاوز القدرة على التخيل، مما تمثل فى الفقر والمعاناة والموت.

وغالباً ما كان ينظر إلى حكماء أمثال " لاو - تزى" و "كنفوشيوس" على أنهم قد علموا الناس طريقاً جديداً للحياة، فعملهم كان العودة بالناس إلى الحكمة القديمة، و "كنفوشيوس" بصورة خاصة، فيما يتصل بآرائه، لم يدع أنها تحمل أى ابتكار، لقد أعرب عن أسفه فقط أنه نتيجة للإهمال والجهل صار الكثير من الطقوس الدينية فى حالة عدم استعمال، إضافة إلى فقدان الحقائق التى كانت ترمز إليها [1].

وعلى شاكلة "لاو-تزى" أكبر الاثنين سناً، شرع فى أنْ يوضح للناس الطريق إلى الفضيلة والقناعة، وهذا المسلك أطلق عليه على الوجه السليم جداً اسم "الطريق" أو "الطاو" - Tao- ، أما كيف يمكن اكتشاف هذا الطريق، فقد اختلف فيه، مع ذلك،"لو-تزى" و"كنفوشيوس" اختلافاً واضحاً، أحدهما عن الآخر.

وترجمة "الطاو" بـ "الطريق" ترجمة معقولة، وهى تعنى أيضاً أساس الكون، ذلك الذى يحفظه ويمنحه الحركة والنظام، وتماماً كما أنّ النجوم قد حددت مسارها، فهناك أيضاً طريق للإنسان، وسيلة قد يستطيع بها أنْ يربط وجوده بالواقع، واقع قد صار بعيداً عنه إلى حدٍما، و "الطاو" هى أصل كل معنى فى الكون، وهى مسئولة أيضاً عن كل الأشياء المخلوقة.

ويتعين فى سياق هذه الأزمة القاسية التى تردت فيها الصين فى القرنين السابقين على ميلاد كونفوشيوس ولاوتو، دراسة هذين الفيلسوفين.

(ب) كونج-فو-تزى (كونفوشيوس) مؤسس الكونفوشية

واسم "كونفوشيوس" هو أحسن الأسماء التى أمكن لأوربا، بثقافتها اللاتينية، أنْ تعيه من اسم "كونج-فو-تزى" kung-fu-tze- الذى يعنى حرفياً "كونج، المعلم" كان اسمه الحقيقى هو "كونج-تشيو kung-chiu"، وعلى شاكلة غيره من زعماء البشرية الروحانيين، خطر "كونفوشيوس" بمولدٍ اعجازى، مصحوباً بمعجزات سماوية، ولد فى سنة ٥٥١ ق.م فى مملكة لو-Lu- ، شانتونج shantung الحالية،

---

[1] تواملين، فلاسفة الشرق، ص ٢٠٠.

ولقد وصفوه، ولربما كان على سبيل التورية، بأن كانت له شفتا ثور وفم أشبه بالبحر، ولعل أكثر الأوصاف صدقاً هو أنه كانت له جبهة ضخمة، ومن ثم أطلق عليه اسم تشيو chin، وبعد وفاة والده اضطر لأنْ يعول أمه، فكان يؤدى أعمالاً إضافية بعد ساعات الدراسة، ولاشك أنه كان دائماً يكبر عمره.

ولم يكن- كونفوشيوس - انطوائياً، وكانت الرياضة التى يحبها بصورة خاصة، هى رماية السهام وصيد السمك، وكان منذ نعومة أظفاره شديد الولع بالموسيقى بالرغم من أنَّ تذوقه لها، كان متحفظاً، ولقد تزوج فى سن التاسعة عشرة.

ومارس حكيمنا رسالته معلماً أو حكيماً أكثر تبكيراً فى حياته من معظم زعماء البشرية الروحانيين، وما أنْ بلغ سن الثانية والعشرين حتى ذاع صيته فعلاً حكمته ولحياته المستقيمة معاً، وفضلاً عن هذا، كانت له موهبة عظيمة فى الفصاحة، ولما شجعه نفرٌ من عشيرته المتحمسين، قرر أنْ يفتح مدرسة، ففتح داره لأى شخص يريد العلم، بيد أنه لم يبدأ بتقديم نوع من الحكمة المجردة، لقد أخذ على نفسه تعليم "موضوعات معينة" أهمها التاريخ والشعر ومبادئ ما أسماه بالسلوك العام - Decorum-، وكان على إيمان كبير بفاعلية وتأثير الموسيقى فى الصقل الأخير لشخصية الإنسان.

وفى سنة ٥٠١ ق.م، صار كونفوشيوس، رئيساً للقضاة أو حاكم مدينة "تشونج- تو chung-Tu" ، ثم رقى إلى منصب وزير الأشغال العمومية، ثم وظيفة وزير العدل، وأسندت إليه أخيراً وظيفة رئيس الوزراء.

وقد أحسن حكيمنا استخدام السلطات التى مارسها، فنقرأ مثلاً:

"كان الغش والفساد خجلين وأخفيا رأسيهما، وصار الولاء والإيمان الصادق خصال الرجال، والطهر ودماثة الأخلاق صفات النساء، ووفد الأغراب فى حشود، من الولايات الأخرى، وصار كونفوشيوس معبود الناس"

وهذا القول فيه مبالغة ولاريب، ولكن إذا ماعُيِّن حاكمٌ له شخصية قوية، فإنَّ مثل هذه التغييرات ليست بالمستحيلة، والمستحيل هو أنْ تستمر وتبقى.

فقد كان من الواضح بالنسبة لكونفوشيوس،، أنَّ مشكلات الشعب تنبع من السلطة الحاكمة، التى تمارس بغير مبدأ أخلاقى، ولمجرد تحقيق مصلحة الحاكم، ورفاهيته فحسب، ومن هنا كانت دعوة حكيمنا إلى الإصلاحات الاجتماعية،

التى من شأنها أنْ تسمح بأنْ تدار الحكومة لمصلحة الناس جميعاً، وقد شدّد على أنْ ذلك يمكن القيام به، إذا كان أعضاء الحكومة ممن يتميزون بأقصى قدر من الاستقامة الشخصية، ويتفهمون احتياجات الناس، ويهتمون بمصالحهم وسعادتهم قدر اهتمامهم بأنفسهم.

ولم يبحث كونفوشيوس عن أساس الطيبة والأخلاق خارج البشر، فداخل الإنسانية ذاتها يوجد مصدر الطيبة والسعادة الإنسانيتين وبنيتهما؛ وهذا الموقف نفسه هو الذى يجعل الكونفوشية نزعة إنسانية أكثر منها نزعة طبيعية.

وجوهر تعاليم كونفوشيوس، يُعبر عنه بالقول بأن الشخص من خلال تطويره لإنسانيته الداخلية يمكن أنْ يصبح عظيماً فى السلوك الشخصى، والحياة الخاصة، وكذلك فى العلاقات مع الآخرين، وعندما يقوم كل الأفراد بذلك فإنَّ الخير سينتشر، والسعادة ستتحقق.

(جـ) لاو-تزى Lao-Tze(لاوتو) مؤسس التاوية:

ولاو-تزى، شخصية غامضة، والواقع أنَّ هناك بعض الشك فيما إذا كان له وجودٌ بالمرة، واسمه قد يوحى بشخصية أسطورية، لأنه يعنى ببساطة، "المعلم العجوز"، ولكن من الواضح أنْ كان له إسمٌ آخر هو "لى-Li- " ومعناه، البرقوق؛ ومن ناحية أخرى يُقال إن كونفوشيوس التقى به، كما ذُكر اسمه عند فلاسفة آخرين.

وُلد (لاو-تزى) فى سنة ٦٠٤ ق.م، فى هونان Honan فى الصين الوسطى، وبرغم أنه نشأ فى بيت فقير، فقد ارتقى حتى صار أميناً للمكتبة الملكية فى تشو - chou- وعاش حتى سن متقدمة، وذاع صيته كحكيم، وقرب نهاية حياته، إيماناً منه بأنَّ مآل وطنه الفوضى، عزم على مغادرته، وعند الحدود، صُرِّح له بمغادرة البلاد بكل مامعه من أمتعة بشرط أنْ يخلّف وراءه شيئاً لصالح بلاده، أعنى حكمته، ولما لم يكن (لاو-تزى) قد دوَّن أفكاره حتى ذلك الوقت، وافق على هذا الشرط، وهكذا دُوِّن كتاب "طاو-تى-تشنج" وهو سجلُ لأفكار (لآو-تزى)، والتى يجب أنْ تسجل - لأهميتها وطرافتها- فى سجلات الفلسفة؛ أما ما حدث له بعد ذلك، فلم تذكر أى رواية عنه شيئاً، اللهم إلاّ تسجيل تاريخ وفاته الذى حُددٌ بعام ٥١٧ ق.م.

وتعتبر فلسفة [لاو-تى-تشنج] واحدة من أكثر الفلسفات ثورية فى صياغتها، فهى تمثل هجوماً على كل شىء اتجه إلى تشكيل ما يدعى حضارة، فينصحنا (لاو-تزى) "بألا تتدخل فى أمر من الأمور" وهو يطالب الحكومات بصورة خاصة بألاّ تتدخل فى أمر من الأمور، ولايرى شيئاً سوى الشر فى فكرة الحكومات، وعلى غير شاكلة جل الفلاسفة الآخرين، هو لايُمجد المعرفة، ولايصفها بالفضيلة، كما فعل سقراط، بعد ذلك بزمن يسير، ويرى أنّه ليس أخطر من تلقين الاستقامة ذاتها، مادام أنَّ كل المحاولات فى بث الخير من خلال التشريع سينتج عكس ماهو مقصود.

ويتلخص جوهر رسالته فى:

" لو تخلصت من العلم، لما عرفت الحزن، تخلص من الحكماء ولاتتقبل الحكمة، وسيستفيد الناس مائة مرة، لاتركن إلى الإحسان، وانبذ الاستقامة، وسيعود الناس إلى واجبهم الأخوى، وإلى الحب الأبوى، تخلص من الحيل وانبذ المكاسب يختفى السالبون واللصوص، كن صريحاً وتمسك بالبساطة."

ومثلما ينصح " لاو-تزى" مواطنيه بألاّ يتدخلوا فى أمر من الأمور، فهو ينصحهم كذلك بأنْ يبقوا حيث هم، وفى ذلك يقول:

"دون أنْ يغادر المرء بلاده، يستطيع أنْ يعرف كل شىء عن العالم، وبدون التلصص من النافذة، يستطيع المرء أنْ يرى طاو السماء، وكلما طالت أسفار الإنسان، كلما قلت معرفته، ولذلك فإنَّ الحكماء يعرفون كل شىء دون أنْ يسافروا، وهو يُسمى كل شىء دون أنْ يراه، وينجز كل شىء دون أنْ يؤديه".

لذلك فالمجتمع المثالى هو "دولة صغيرة بها قلة من الناس"،هذه القلة يجب أنْ تكون راضية بما عندها، وستكون راضية بما عندها مالم تكن تسعى لتوسيع أفقها، "وبرغم أنَّ الدول المجاورة داخل نطاق الرؤية، ويُسمع صياح ديكتها ونُباح كلابها، فلن يقترب أهالى (تلك الدولة الصغيرة) منها طوال حياتهم".

لاشك أنَّ هذا المبدأ كان غريباً، أنْ يصدر عن شخص هو، فى الوقت الذى كان يدوِّنه على ورق، كان يُعد نفسه فعلاً لمغادرة وطنه، ولكن وجهة نظره كانت طريفة فى أنها كانت حلاً بالنسبة للكائنات البشرية، التى لم تجربها قط.

وقد اكدت (تاوية) لاوتو على الحاجة إلى النظر فيما يتجاوز وعود البشر والمعاهدات التى يبرمونها، وذلك للوصول إلى نبع السلام والرضا، وقد دعا (لاوتو) إلى حياة بسيطة ومتناسقة، حياة يتم التخلى فيها عن دافع الربح، وتنحية الحذق جانباً، والتخلص من الأنانية، وتقليل الرغبات.

وقد شعر (لاوتو) بأنه مادام الطمع وحب اكتساب المال يشكلان دوافع الأفعال الإنسانية، فليس هناك أملٌ فى تحقيق السلام والرضا، وبناء على هذا فقد دعا إلى المبدأ القائل بأنه لا ينبغى القيام إلاّ بتلك الأفعال التى تتسق مع الطبيعة.

(د) الكونفوشية.. فلسفة إنسانية اجتماعية:

أشرنا إلى أنَّ العصر الذى عاش فيه كونفوشيوس، اتسم بالتفكك السياسى والاجتماعى ، والتردى الواسع النطاق للأخلاق، وقد كان من الطبيعى فى ضوء هذه الأوضاع أن يتجه حكيمنا إلى إصلاح حال المجتمع، وتركزت إشكاليته فى (كيف يمكن تحقيق رفاهية المجتمع؟).

وكان رده على هذا السؤال هو فلسفته، وهى فلسفة إنسانية اجتماعية، تدور حول البشر ومجتمعهم، وليس حول الطبيعة أو معرفة الطبيعة، ووصف الكونفوشية بأنها نزعة إنسانية هو إشارة إلى أنها فلسفة ترد على هذا السؤال:

"كيف يمكن تحقيق الخير والسعادة؟" بالإشارة إلى مبادئ الفعل التى يتم العثور عليها فى الإنسانية ذاتها، ومصدر هذه المبادئ هو ما يجعل من البشر مخلوقات إنسانية.

(١) الطريق الكونفوشى طريق "جين" أو طيبة القلب الإنسانية":

يقول كونفوشيوس إنَّ ما يجعل إنسانين على نحو فريد هو "جين" Jen- أو طيبة القلب الإنسانية، ولقد ترجمت كلمة "جين" بطُرق شتى، ومن هذه الترجمات: الفضيلة، الإنسانية، الإحسان، الرجولة الحقة، الطابع الأخلاقى، الحب، الخير الإنسانى، وطيبة القلب الإنسانية؛ والتعبير الإنجليزى - Human Heartedness- يوحى بأنَّ "جين " هى ما يجعلنا إنسانين، وأنها أمرٌ متعلق بالشعور، وكذلك بالتفكير، وأنها أساس العلاقات الإنسانية كافة، وتكشف ترجمة كلمة "جين"

بطيبة القلب الإنسانية كذلك عن التشديد الصيني على القلب، وليس على العقل، باعتباره السمة المحددة للطبيعة الإنسانية.

وعندما سُئل- كونفوشيوس- عما هي "جين" رد قائلاً:

"إنها حب البشر" موحياً بأنَّ قدرتنا على الحب تشكل جوهر إنسانيتنا.

غير أنَّ قدرتنا على حب الآخرين لها تبعات أخلاقية مهمة، الأمر الذي يقتضي التفكير في الـ "جين" من منظور أخلاقي، يقول كونفوشيوس:

" يرغب كل إنسان في الثروة والشرف، ولكنهما إذا تم تحقيقهما عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق، فإنه لا ينبغي الإبقاء عليهما؛ ويكره كل إنسان الفقر وتواضع المرتبة، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادئ الأخلاقية، فإنه لاينبغي تجنبهما، وإذا ما نأى شخصٌ رفيع المكانة عن الإنسانية (الجين) فكيف يمكن أنْ يحقق تلك المكانة؟ ذلك أنَّ الإنسان الرفيع المكانة لايمكنه قط التخلي عن الإنسانية (الجين)، حتى ولو من أجل وجبة طعام واحدة، فهو في لحظات التعجل وهو مسرع يعمل وفقاً لها، وهو في أوقات الشدة والاضطراب يعمل وفقاً لها".

وتشير هذه العبارة بوضوح إلى أنَّ (جين) كونفوشيوس، هي المبدأ المطلق للفعل الإنساني، والكائن البشري الحق لا ينحرف عن طريق "الجين" قط ومن ينحرف عن هذا الطريق لا يعبر عن كمال الإنسانية، والكلمة التي تترجم بالمبادئ الأخلاقية في هذه الفقرة هي "التاو" أو "الطريق" الأمر الذي يعني ضمناً أنَّ الطريق السليم للعقل الإنساني ليس طريق تحقيق ما يحبه المرء وتجنب ما يكرهه، وإنما هو طريق العمل وفق مبدأ أعمق، هو مبدأ [الجين].

ويرى كونفوشيوس إن الجين بالغة الأهمية، بحيث إنَّ الحياة من دونها ليست جديرة بأنْ يحياها الإنسان، ومن يتسم بالحكمة، ويعد مثقفاً حقيقياً، لايقترف ما من شأنه الإضرار بـ [الجين]، وفي هذا يقول حكيمنا:

" إنَّ المثقف الحازم، ورجل الإنسانية (الجين) لايسعى قط للحياة على حساب الإضرار بالإنسانية (الجين)، وهو يؤثر التضحية بحياته، لكي يحقق الإنسانية (الجين)".

لأنَّ الجين، هى على وجه الدقة ما يجعلنا إنسايين حقاً، فإنَّ التخلى عنهـا هـو تخلٍ عن الحياة الإنسانية بصورة كاملة؛ والجين، جديـرة بـأنَّ يضحـى المـرء بحياتـه مـن أجلها، فهى أساس لكلِ قيمة وجدارة إنسايتين، والجين، هى فى نهاية المطاف، مـا يجعل الحياة جديرة بأنْ تعاش.

(٢) ضرورة احترام " آداب المجتمع" فى فلسفة كونفوشيوس:

وفى رأى كونفوشيوس، أنَّ السيطرة على النفس، تقهر الأنانيـة، وتغـرس الخـواص الداخلية للإنسانية، التى تشمل الإخلاص والاستقامة الشخصية.

وانصت إلى إجابته، عندما سُئل عن الجين، قال:

"أنْ يسيطر المـرء علـى نفسـه، وأنْ يعـود إلى آداب المجتمـع، تلـك هـى الإنسـانية (الجين)".

ويضيف حكمينا قائلاً:

"إذا كان بمقدور إنسان (الحاكم) أنْ يسيطر على نفسه ليوم واحد، وأنْ يعـود إلى اللياقة، فإنَّ كل ماتحت السـماء سـيعود إلى الإنسـانية (جـين)، وممارسـة الإنسـانية تعتمد علَى المرء نفسه".

ويتعين علينا لفهم الأهمية التى يعلقها كونفوشيوس على "آداب المجتمـع" أن نـرى ماذا يعنى هذا التعبير عنده، يعنـى الديـن، ويعنـى المبـدأ العـام للنظـام الاجتمـاعى، ويعنى كيان الممارسات الإجتماعية والأخلاقية بأسره والذى علمـه كونفوشيوس، وأضفى علية طابعاً عقلانياً، ويعنى أيضاً الطقوس والاحتفالات، ويعنى نظامـاً مـن العلاقات الاجتماعية المحددة بوضوح، مع مواقف نهائية من جانب كل طرف تجـاه الطرف الآخر، الحب فى حالة الآباء، الولاء البنوى فى حالة الأبنـاء، الاحـترام فـى حالة الإخوة الأكبر، الولاء بين الأصدقاء، الاحترام للسلطة بـين الرعايـا، والنـزوع إلى الخير فى حالة الحكـام، ويعنـى الانضبـاط الأخلاقـى فـى السـلوك الشـخصى، والآداب العامة فى كل شىء.

وبهذا المعنى، فإن [آداب المجتمع] هى القانون العرفى، أو الأخلاقى السائدة وتحـل محل القانون المكتوب، على الرغم من أنها تختلف عـن القـانون المكتـوب فـى أنهـا

إيجابية، وليست سلبية بمعنى أنها يقول "افعل هذا" بدلاً من "لاتفعل هذا"، وهى لاتجلب معها العقاب، التلقائى، ويفرض بشكل عام أنها تشير إلى سلوك الارستقراطية، وليس العامة.

(٣) دور "العائلة" فى فلسفة كونفوشيوس:

ويؤكد كونفوشيوس أهمية العائلة فى تطوير (الجين)، لأنَّ العائلة تشكّل البيئة الاجتماعية المباشرة للطفل، ففى العائلة يتعلم الطفل احترام الآخرين وحبهم، حيث يأتى الآباء أولاً، فالإخوة والأخوات والأقارب، ثم باتساع النطاق التدريجى، الإنسانية كافة، ويقول أحد أتباع كونفوشيوس- توتسو Tutzu- إنَّ "الولاء البنوى، والاحترام الأخوى هما جذر الإنسانية".

فالولاء البنوى، هو فضيلة توقير العائلة واحترامها، فأولاً وقبل كل شىء، يتم توقير الأبوين، لأنَّ الحياة نفسها متولدة عنهما، وفى غمار إظهار التوقير للوالدين، من المهم حماية الجسم من أنْ يلحق به أذى، حيث الجسم من الأبوين، ومن هنا فإنَّ حماية الجسم هى تكريمٌ للأبوين، بل أكثر من ذلك، فإنَّ التوقير ينبغى إظهاره للأبوين من خلال حسن السلوك فى الحياة، وجعل إسهامهما معروفاً ومبجلاً، وإذا لم يكن بمقدور المرء أنْ يُشرِّف إسم أبويه، فعليه ألاَ يجلب لهما الخزى والعار، على الأقل، وهكذا، فإنَّ (الولاء البنوى) لايتمثل فى الرعاية البدنية من جانب المرء بوالديه فحسب، وإنما كذلك فى جلب الثراء العاطفى والروحى، (والولاء البنوى) ليس فضيلة عائلية فقط، فهذه الفضيلة التى تنشأ فى العائلة تؤثر فى الأفعال خارج المحيط العائلى، وتصبح من خلال اتساع نطاقها فضيلة أخلاقية واجتماعية، وعندما يتعلم الأطفال احترام أبويهم وتوقيرهم، فإنَّ بمقدورهم أنَّ يحبوا إخوتهم وأنْ يحترموهم، وعندما يحققون ذلك، فإنَّ بإمكانهم أنْ يحبوا الإنسانية بأسرها، وأنْ يحترموها وبالتالى يتصرفون وفقاً لإنسانيتهم، أو وفقا للجين، زهكذا فإنَّ بدايات "جين" إنما توجد فى الولاء البنوى.

(٤) دور "الاستقامة" فى فلسفة كونفوشيوس:

وهناك فضيلة أخرى شدّد عليها كونفوشيوس، باعتبارها ضرورية لتطوير "جين"، هى الاستقامة، يقول:

" إنَّ الاستقامة تدلنا على الطريق الصحيح للتصرف فى مواقف محددة، بحيث إننا نكون على توافق مع (جين)، وهكذا فإن الاستقامة، هى الاستعداد الأخلاقى للقيام بالسلوك، والقدرة على إدراك ماهو صحيح فى آنٍ معاً" وهى قدرة تعمل كنوع من الحس أو الحدس الأخلاقى.

وهو يقول أيضاً:

" ينظر الرجل الأسمى إلى الاستقامة، باعتبارها جوهر كل شىء، وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب المجتمع، ويبرزها فى تواضع، ويمضى بها إلى نهايتها فى إخلاص، إنه حقاً الرجل الأسمى!".

ويتحدث حكيمنا فى بعض الأحيان عن هذه القدرة من خلال شخصية المرء أو استقامته الأخلاقية، ذلك أَنَّ الشخص ذا الشخصية الأخلاقية القوية، الذى يرى فرصة للكسب يفكر أولاً فيما إذا كان القيام بذلك من شأنه أَنْ يكون صواباً على الصعيد الأخلاقى (الاستقامة)، ومثل هذا الشخص على استعداد للتضحية بحياته من أجل شخصٍ يتعرض للخطر.

فالشخص ينبغى أَنْ يحترم أبويه ويطيعهما، لأَنَّ ذلك صوابٌ على الصعيد الأخلاقى والتزامٌ ينبغى القيام به، وليس لأى سببٍ آخر.

وعلى هذا، تكون الاستقامة، والولاء البنوى، وطيبة القلب الإنسانية، هى خصائص الشخص الأسمى، الشخص الذى طورت إنسانيته، والذى تفتحت مداركه ونضج وعيه، وهذا الشخص الأسمى، هو نقيض الشخص الضئيل أو المنحط، الذى لم تنضج مداركه أخلاقيا، والذى يتصرف بوحى الغريزة، ومن أجل النفع.

وقد كان كونفوشيوس مقتنعاً بأَنَّ العناية بالإنسانية من خلال احترام آداب المجتمع، والولاء البنوى، والاستقامة، سوف تفضى بالشخص إلى تجسيدٍ شخصى للفضيلة، الأمر الذى سيسفر عن مجتمع منظم خير تنظيم، وليس هناك تمييزٌ حادٌ هنا بين الأخلاق والسياسة، فإذا كان الناسُ صادقين مع أنفسهم، ويتسمون بالإخلاص، فإنهم سيُجسدون الفضائل المختلفة، وإذا ما قام كلُ شخصٍ بهذا، فمن المؤكد أنه ستكون هناك حكومة جيدة، ونظام اجتماعى تعُمه السعادة.

(هـ) التاوية.. والتأكيد على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة:

ترجع بدايات التاوية، شأن بدايات الكونفوشية، إلى الاحتجاج الفلسفى على الظروف التى كانت سائدة فى عصرها، وعصر لاوتو هو نفسه على وجه التقريب عصر كونفوشيوس، وتكشف الاتهامات التى وجهها لاوتو - والقائلة بأنَّ الفقر والجوع سببها الحكام السيئون، وأنَّ الطمع والجشع تسببا فى الحروب والمجازر، وأنَّ الرغبات فى الثروة والسلطة، والمجد، تجلب دمار المجتمع - عن أنَّ فلسفته قد استمدت الهاماً من القلق إزاء الأوضاع الاجتماعية الجديرة بالإدانة التى كانت سائدة فى ذلك العصر.

وقد أكد التاويون على تناسق الطبيعة، وكمالها، وقوام الموقف التاوى هو أنَّ حيل البشر وأفاعليهم تفضى إلى الشر والتعاسة، ويتعيَّن عليهم للعثور على السلام والرضا أنْ يتبعوا طريق الكون، أو "تاو" الكون، وأنْ يحققوا التوحد مع هذا التاو.

ويرى لاوتو أنَّ الحياة المثالية، هى الحياة البسيطة والمتناسقة، والحياة البسيطة هى الحياة العادية، التى فيها تجاهل الربح، والتخلى عن الحذق، وتقليل الأنانية إلى حدها الأدنى، وكبح الرغبات، وهذه السمة الأخيرة من سمات الحياة البسيطة تفيد فى إيضاح التباين بين "لاوتو" و"كونفوشيوس"، فقد دعا الأخير- كونفوشيوس- إلى الطقوس والموسيقى، بحيث يمكن إعلاء الرغبات والانفعالات وتنظيمها، أما بالنسبة لـ"لاوتو" فإنَّ الجهود المبذولة لتطوير الرغبات والانفعالات وتنظيمها قد بدت مصطنعة، وتميل إلى التدخل فى تناسق الطبيعة، وبدلاً من تنظيم الأشياء وضبطها لتحقيق الكمال، فإن لاوتو سيترك الأشياء تعمل وصولاً إلى كمالها على نحو طبيعى، فالتباين بين كونفوشيوس ولاوتو تباينٌ بين الاعتقاد بأنَّ البشر هم معيار كل الأشياء ومصيرها، وبين الاعتقاد بأنَّ الطبيعة هى معيار كل الأشياء ومصدرها.

وتنظر التاوية إلى الإنسانية والطبيعة باعتبارها وحدة واحدة، ولاتميز بينهما، وفقاً لهذه الفلسفة، فإنَّ أساس الإنسانية ليس من صنعنا، وإنما هو متضمنٌ فى شمول الكون وعمله، وبناءً على هذا فإنَّ التاوية فى جوانبها النقدية والسلبية تحلل العيوب والشرور التى تواجه المجتمع البشرى، وتصل إلى أنها تنبع فى المقام الأول من وجهة النظر الخاطئة للإنسان والكون.

ومهمة الفلسفة هى أنْ تقود البشر إلى الوحدة مع الكون من خلال إضاءة " تاو" هذا الكون، وتشير كلمة "تاو" إلى الدرب أو الطريق، وهى تعنى فى التاوية، المصدر والمبدأ الذى يعمل على أساسه كل ماهو موجود، وعندما يتوجد تاو الانسانية وتاو الكون، فإنَّ البشر سيدركون طبيعتهم اللا متناهية، وعندئذٍ سيسود السلام والتناسق.

والوظيفة الأولى للقواعد الأخلاقية والمؤسسات الاجتماعية- فى رأى لاوتو- هى تنظيم أفعال الناس، لكى يتحقق الحد الأقصى من الإشباع للجميع، وينتهى لاوتو، إلى ضرورة التخلى عن الرغبات كمصادر للفعل، وأنَّ الناس ينبغى أنْ يتبنوا طريق التاو السهل، وألا يفرضوا رغباتهم على الطبيعة، بل يتبعوا مبادئ الطبيعة، وقد دعا فيما يتعلق بالمجتمع، إلى حكومة للشعب تتفق مع الطريق السهل والطبيعى للتاو، الذى يعزز الطريق الطبيعى فى حياة الناس.

ذلك أنَّ وضع المعايير الأخلاقية لايحل المشكلات، فالتنافس والصراع- بين الناس- يبقيان على حالهما، والقواعد تنتهك ، ويتم إقرار قواعد جديدة لحماية القواعد القديمة، ولكن القواعد القديمة والجديدة تنتهك، وتظل الرغبات دونما إشباع بينما يتدعم الشر واقتراف الخطأ، وبما أنَّ التوصل إلى معايير أخلاقية لا يحل المشكلة، فإنَّ الحل يمكن فى التخلى عن هذه المعايير.

والطريق السهل للفعل فى رأى لاوتو يفترض مقدماً التناغم مع الكون والترف وفقاً للتاو الكونى الشامل.

ونتيجة لذلك، فقد نظر "لاوتو" إلى فشل الأخلاق الكونفوشية فى تحقيق الأوضاع الاجتماعية المثالية على أنه مؤشرٌ على عدم كفاية المنظور الأخلاقى، فالأخلاق لاتدرس المشكلة فى جذورها، ومن خلال السماح للرغبات بأنْ تعمل كمصادر شرعية للفعل الإنسانى، لهذا فإنَّ الأخلاق تعجز عن القضاء على التنافس، والنزاع، وأقصى ماتستطيع عمله هو تنظيم التنافس والتقليل من النزاع، ولكن هذا يؤدى، ببساطة إلى تعقيد مسألة إشباع الرغبات على نحو يتفق مع القواعد الأخلاقية، ويؤدى إلى تحطيم القاعدة، وبذلك يظهر السلوك اللاأخلاقى، فهى لا تقضى على التنافس، ولاتتيح المجال للإشباع الكامل للرغبات، ومن هنا فقد قال لاوتو:

" عندما يضيع التاو، عندئذٍ فقط ينشأ مذهب الفضيلة، وعندما تضيع الفضيلة، عندئذٍ ينشأ مبدأ الإنسانية"

ونصيحة "لاوتو" للحكام هي أنهم ينبغي أنْ يحكموا في إطار أدنى حد ممكن، وأنْ يتمسكوا بالطريق الطبيعي، وأنْ يتركوا الناس يمضون في طريقهم، وهو يشير إلى أنَّ الناس يصعب حكمهم، لأنَّ الحاكم يقوم بأكثر مما ينبغي من الأمور.

وما ينبغي أنْ يضعه الحاكم في ذهنه هو أن "حكم بلد كبير يشبه طهو سمكة صغيرة" وفي القيام بطهو سمكة صغيرة يتعين على المرء ألاّ يعالج أمرها بخشونة وقوة، لأنَّ المبالغة في المعالجة ستفسدها؛ وفي إطار حكم بلدٍ يتعين الحرص على عدم دفع الناس دفعا، وإجبارهم على التمرد، وعندما يتم إرضاء الناس فلن يكون هناك تمردٌ أو حروب، وبالتالي فإنَّ الطريق السهل في الحكم إعطاء الناس مايرغبون فية، وجعل الحكومة تتوافق مع إرادة الناس، وليس محاولة إجبار الناس على التوافق مع إرادة الحكومة.